المناهج والأطر التأليفية في تراثنا

تأليف

الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

المناهج والأطر التأليفية في تراثنا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من منشورات المكتب الاسلامي

من آثـــار المؤلف المطبوعة

- الابتعاث ومخاطره
- ابو داود حياته وسننه
- أم سلـــيم
- تاريخ القصاص وأثرهم في الحديث النبوي
- تحريم الخلوة بالمرأة الاجنبية
- التصوير الفني في الحديث النبوي
- الحديث النبوي
- رسالة أبي داود الى أهل مكة
- فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر
- لمحـــات في عـــلوم القرآن
- نظرات في الاسرة المسلمة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المنهج وآلأطر التأليفية في تراثنا

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

المكتب الاسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا: اسلاميًا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيًا: اسلامي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، فهذه الرسالة الموجزة كلمة كنتُ نشرتها في مجلة الدارة (العدد الأول من السنة العاشرة) في شهر شوال سنة ١٤٠٤ هـ ورأى أخي الأستاذ الفاضل زهير الشاويش أن تنشر مستقلّة في رسالة، ليكون النفع منها أعمَّ وأشمل، فوافقته شاكراً له اهتمامه بما يكتب هذا العاجز.

هذا وقد تضمنت هذه الكلمة تعريفاً بمناهج التأليف وبالأطر التي صيغت فيها ثقافتنا في تراثنا الإسلاميّ كله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأحسب أن أجيالنا الجديدة التي لم تدرس على النمط القديم ستفيد من هذه الدراسة، ذلك لأن معرفة خصائص كتاب ما وطريقة عرضه لحقائق العلم تسهل استيعاب مسائل العلم، وكيفية الرجوع إليها والبحث فيها.

وقد أتيح لي أن درست طالباً على هذا النمط بضع عشرة سنة بالإضافة الى دراستي في الثانوية والجامعة، ومازلت بعد تخرّجي مشتغلاً بهذه الكتب باحثاً ومدرساً.

إنَّ ذلك أعانني على معرفة خصائص تلك الأطر وأنواعها وأساليبها ولم أر بحثاً خاصاً في هذا الموضوع.

ولا بُدَّ لطلاب العلم في شتى فنون المعرفة من الرجوع إلى كتب التراث الأصيلة والقراءة فيها مهما وجدوا في بادىء الأمر من الصعوبة

إن كتب تراثنا وضعها مؤلفوها في أجواء تختلف عن الأجواء التي تغمر العلماء المعاصرين، هذه الأجواء التي يلقون منها ضغطاً فكرياً وحضارياً .

لم يكد ينجو منه أحد منهم، وليست آثار هذا الضغط عليهم واحدة.. بل تتفاوت من إنسان إلى آخر، وبعضها كان مسايراً

لاتجاه الضاغطين، وبعضها كان معاكساً. ولكن ذلك كله ردّ فعل. وردود الأفعال ليست سليمة أبداً.

أسأل الله أن يوفقنا إلى الحق، وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل، وأن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم وصلى الله على محمد وآله والحمد لله رب العالمين

الرياض ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٤٠٤ هـ

محمد بن لطفي بن عبد اللطيف الصباغ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن المكتبة الإسلامية من أغنى مكتبات الدنيا، وهي حافلة بالجديد في الفكر والفن المترع بالعبقرية والإبداع، والجودة والإمتاع.

وقد كانت هناك مناهج التزمها علماؤنا المتقدمون في تآليفهم وأطر لتلك التآليف. وأود في هذا البحث أن أُعرف بالفروق الدقيقة بين منهج وآخر من مناهج التأليف هذه، وأن نقف على خصائص كل إطار من الأطر التي صيغت ضمنها كتب تراثنا الإسلامي الخالد، وأن نميز أنواع المؤلفات المتعددة التي تركهاالسلف ثروة غنية ما زلنا نفيد منها، وهي جديرة بأن نعتز بها أعظم الاعتزاز.

هناك مناهج للتأليف عند العلماء المسلمين.

وهناك أطر تأليفية.

والفرق بين الأمرين واضح من التسميتين:

ـ فالمنهج هو الخطة التي يسير عمل المؤلف وفقها ليسجل ما انتهى إليه علمه من نتائج. وقد قالوا في تعريف المنهج:

«هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار، إما من أجل **الكشف** عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل **البرهنة** عليها للآخرين وتعليمهم إياها حين نكون بها عارفين»[1]

(١) انظر «مناهج البحث العلمي» لعبد الرحمن بدوي ص٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ـ أما الأطر التأليفية فهي القوالب التي التزمها العلماء في وضع الكتب في العلوم.

هذا ولكل عمل تأليفي ـ كما هو معلوم ـ أمور ثلاثة هي :

(١)الغاية والهدف.

(٢)المنهج والخطة.

(٣)الإطار والشكل.

ولن أتعرض في هذا البحث إلى الغاية إلا باعتبار أنها عامل مؤثر في المنهج والإطار ؛ وإن كان الحديث عنها مهماً جداً، لاسيما في تقرير الدافع للتأليف، فإن كانت الغاية ابتغاء ما عند الله من الثواب، ونفع العباد ونشر العلم ؛ كان لذلك أثره البالغ في انتفاع الناس بالكتاب.

مناهج التأليف:

هناك كتب عدة في مناهج البحث، وهي تختلف من علم إلى علم ؛ ولذلك فإننا نجد في المكتبة العربية الحديثة وفرة واضحة من هذه الكتب، فهناك كتب في :

مناهج البحث في الأدب.
وكتب في مناهج البحث في النحو.
وكتب في مناهج البحث في علم الاجتماع.
وكتب في مناهج البحث في علم النفس.
وكتب في مناهج البحث في التاريخ.. وما إلى ذلك.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن هذه الكتب شيء يختلف عن مناهج التأليف التي أتحدث عنها هنا:

ذلك لأن البحث للوصول إلى الحقيقة يختلف عن طريقة عرض هذه الحقيقة. فموضوعنا هو في عرض هذه الحقائق وترتيبها وتعليمها، لا في كيفية الوصول إليها. إن التأليف يكون مرحلة تالية لمرحلة البحث. وهذا مايدل عليه تعريف المنهج الذي سبق أن أوردناه.

وتختلف مناهج التأليف باختلاف الأمور الآتية:

(أ) العلوم.

(ب) العصور.

(جـ) مذاهب المؤلفين واتجاهاتهم العلمية، وطاقاتهم ومواهبهم.

(د) الغايات التي من أجلها ألفوا كتبهم.

١ ـ فللعلوم النقلية منهجها الخاص بها، ويتميز عن منهج التأليف في العلوم التجريبية تميزاً تاماً، فلكل منهج يختلف عن الآخر تبعاً لاختلاف العلوم.

فالمنهج الذي اعتمده ابن جرير الطبري رحمه الله ـ المتوفى سنة ٣١٠ هـ ـ في تفسيره القيم مثلا، يختلف اختلافاً بيّناً عن المنهج الذي اعتمده ابن سينا ـ المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ـ في كتاب «القانون في الطب»[٢]. ذلك لأن العلم النقلي، يفرض منهجاً خاصاً لا مفر من

(٢) وقد طبع في روما سنة ١٥٩٣ ثم في طهران ثم في الهند ومصر، وطبع في أوروبا=

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

استخدامه، وهذا المنهج هو الاعتماد على الرواية، والرواية تقتضي إيراد الأخبار بأسانيدها ليتاح للمحقق الترجيح بين الروايات، وأخذ الصحيح منها ونبذ الضعيف والسقيم.

وقد كانوا يقررون أن إيراد الأخبار بأسانيدها يبرىء الذمة ويخرج صاحبها من المسئولية والعهدة.

أما العلم الذي يعالج قضايا غير نقلية كالمرض الذي يصيب الإنسان وكالبحث في النبات والأفلاك والهندسة والرياضيات والمنطق، فإنه يفرض منهجاً آخر يعتمد على معقولية الحقائق، إما عن طريق الفكر والمنطق، وإما عن طريق تجربتها وامتحانها عملياً.

والأمثلة على كتب التراث التي تسلك المسلك التجريبي كثيرة. نذكر منها:

كتاب «**الحاوي**» لأبي بكر الرازي محمد بن زكريا ـ المتوفى سنة ٣٢٠هـ ـ، وكتاب «**جامع مفردات الأدوية والأغذية**» لابن البيطار، وقد ذكر ابن النديم في «**الفهرست**» وطاشكبري زاده في «مفتاح السعادة» مئات الكتب في هذا الصدد.

ومما يذكره كثير من المحدثين[٣] نموذجاً على ذلك «**رسائل إخوان**

= أكثر من مرة بعضها باللغات الأجنبية، وبعضها مشفوعاً بالنص العربي (انظر معجم المطبوعات العربية ١/ ١٣٠-١٣١) ولشيخ الإسلام ابن تيمية رأي في الرجل وفكره.

(٣) من أمثال جرجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»، وأحمد أمين في كتابيه «ضحى الإسلام» و «ظهر الإسلام»، وطه حسين وأحمد زكي في مقدمتيهما للرسائل المطبوعة في مصر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الصفا»؛ فقد تعرضت إلى موضوعات علمية تجريبية، ولكن هذه الرسائل منحرفة هدامة تزرع الشك وتنشر الخرافة وتشيع الزيغ[٤].

وكذلك فإن العلوم الاجتماعية واللغوية والفقهية لكل منها منهج خاص بها، وإن اختلفت العصور وتغاير المؤلفون [٥].

قال الأستاذ عبد الرحمن بدوي: (.. وتبعاً لاختلاف هذه العلوم تختلف المناهج ولكنها يمكن أن ترد إلى منهجين هما:

ـ الاستدلال والتجريب.

يضاف إليهما منهج ثالث خاص بالعلوم الأخلاقية أو التاريخية، هو منهج: **الاسترداد)** [٦].

(٤) وهذه الرسائل إحدى وخمسون رسالة، منها رسائل رياضية وهي ١٤ رسالة: الأولى في العدد وماهيته وكميته وكيفية خواصه، والثانية في الهندسة وبيان ماهيتها وأنواعها. وفي هاتين الرسالتين من تخريفات الفلاسفة المتقدمين وأساطيرهم المضحكة الشيء الكثير، والثالثة في النجوم، وفيها نجد الإسفاف المتناهي، إذ يقرر كاتبوها أن للنجوم تأثيراً في هذا العالم.. ومنها الرسائل الجسمانية الطبيعية وهي ١٧ رسالة وفيها كذلك من الفساد والإلحاد الشيء الكثير، ولكن فيها كلاماً عن حوادث الجو والضباب والأمطار والرعود والبرق وما إلى ذلك. هذا وقد نشرت هذه الرسائل أكثر من مرة في أربعة مجلدات كبيرة وسعى في نشرها وخدمتها مستشرقون ونصارى وبعض المستغربين. ومؤلفوها قوم من أئمة القرامطة كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» ٥/ ١٠ وكما جاء في فتوى له عن النصيرية ص ١٩ طبع دار الإفتاء بالرياض، ويقول المستشرق دي بور في كتابه «تاريخ الفلسفة في الإسلام» ص ١١٣: «إن آراء إخوان الصفا ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز».

(٥) انظر «ضحى الاسلام» ٢/ ١٦ وما بعدها.

(٦) انظر «مناهج البحث العلمي» ٦ ـ ٧.

٢ ـ وللعصر تأثير واضح على مناهج المؤلفين، فإنك لو وازنت بين كتابين في علم واحد ألفا في عصرين مختلفين، لوجدت بينهما اختلافاً ملموساً. ونذكر على سبيل المثال «**الكتاب**» **لسيبويه** وكتاب «**الشذور**» لابن هشام وهما في النحو. وكتاب «**الأم**» للشافعي وكتاب «**متن الغاية والتقريب**» لأبي شجاع وهما في فقه الشافعية.

وهذا أمر بديهي، لأن المؤلف لابد له من أن يتجاوب ويتفاعل مع عصره، ولن ينجو من الخضوع لمتطلباته الفكرية، وللعوامل المتعددة التي ساهمت في تكوينه، ولا بد له من أن يتأثر بقضايا عصره المهمة التي يخضع لها الناس جميعاً.

والتأثر بواقع العصر على نوعين: **إيجابي، وسلبي**.

تأثر يساير هذا الواقع ويمضي في طريقه.

وتأثر يتنافر معه ويمضي في طريق معاكس، وكلاهما تأثر.

وأن الأعراف العلمية تتبدل من زمن إلى زمن.. والأسلوب المفضل عند العلماء في معالجة المسائل العلمية يختلف من عصر إلى عصر.

ففي العصور الأولى؛ كان يسيطر على مؤلفينا شعور بأنهم يدونون العلم في كتب لأول مرة.. ولذا فقد كان الطابع الذي نلمحه ـ نتيجة لذلك ـ في مناهج التأليف في تلك الحقبة هو الحرص على جمع كل ما يقع تحت سمع المؤلف وبصره، مما يدخل في اختصاص علمه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وموضوع كتابه، ولا يكون للترتيب والتبويب فيه إلا الأثر الضئيل[٧].

بينما أصبح أمام المؤلفين في العصور المتأخرة تراث ضخم من الكتب التي جمعت المعلومات الكثيرة، وأعجبوا بصبر أولئك المؤلفين على صعوبة العمل وطاقاتهم الجبارة.. وانتهى معظم المتأخرين إلى أن مجال الجمع قد انقضى وانصرم، بل ذهب بعضهم الى أن الإبداع في الفن والاجتهاد في الدين قد توقفا. فالتفتوا إلى هذه المعلومات ينسقونها وينظمونها في أبواب، ويقعدون ما فيها من قواعد، ويجمعون الشيء إلى مثله، ويبسطون ما يحتاج إلى بسط، ويحذفون ما يرونه فضولاً، وكان عاقبة ذلك ظهور عدد من الكتب المبوبة المرتبة والمنظمة.

ومادمنا في صدد الحديث عن اختلاف مناهج التآليف باختلاف العصور، فلا بد من ذكر الملاحظة الهامة الآتية :

لقد خضعت الكتب لمقتضيات نشوء العلم وتطوره ونموه تدريجياً، فليس طبيعياً أبداً أن يكون الكتاب الأول في علم من العلوم كاملاً لأول مرة. إن مقتضيات نشوئه تحتم أن تكون هناك محاولات بدائية

---

(٧) بل أن الاختلاف كان كثيراً جداً في تحديد معنى «الجزء، والكتاب، والباب... الخ» حتى أن المؤلف الواحد نجد له أكثر من رأي، وأكثر من طريقة، وما أظنها أخذت الطابع الذي نعرفه إلا أواخر القرن الرابع الهجري. وانظر على سبيل المثال مقدمة «مسائل ابن هانىء» للإمام أحمد بن حنبل

- الناشر -

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تسبق ظهور الكتاب المكتمل. . وتتكرر المحاولات. . ولا تزال تتقدم شيئاً فشيئاً وتنمو تدريجياً حتى تصل الى مرحلة النضج والتمام، والدارس لتاريخ التأليف في علم من العلوم يرى مصداق هذه الملاحظة في الكتب الأولى.

٣ ـ ولاتجاهات المؤلفين العلمية، ولمزاياهم الشخصية تأثير كبير في اختلاف مناهج التأليف، فلكل مؤلف خصائص تأليفية ذاتية، عملت في تكوينها عوامل متعددة، يختلف بها عن غيره ممن يؤلفون في العلم نفسه وممن يعاصرونه. وأوضح ما تكون هذه الفروق إذا كان المؤلفان ممن يتمتعون بالأصالة، وكانا إمامين من كبار المؤلفين.

ولنأخذ على ذلك مثلاً كتابين ألفا في عصر واحد، هو القرن السابع الهجري، وفي علم واحد، وهو علم البلاغة. . إننا نرى أن اتجاه كل من المؤلفين مختلف وأن كلاً منهما صبغ كتابه بصبغة تختلف عن صبغة معاصره، وهذان الكتابان هما:

ـ كتاب «**مفتاح العلوم**» للسكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ «**القسم الخاص بالبلاغة**».

ـ وكتاب «**المثل السائر**» لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ.

إن للعامل الشخصي للمؤلف وزنه الكبير وأثره الواضح في مناهج التأليف.

ويبدو الفرق أوضح عندما يعلو مؤلف في مواهبه وقدرته، وينحدر آخر فيها ولا يتميز إلا بالقدرة على الجمع. . إن مثل هذه الحالة تتيح بروز الفرق بشكل أوضح وأجلى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٤ ـ وكذلك فإن للغاية التي يرمي إليها المؤلف تأثيراً كبيراً في المنهج. فإن كانت غايته تعليم الصغار كان هناك منهج يلزم بالاقتصار على إيراد الأصول الهامة والخطوط الكبرى للموضوع، ولا يستقصي ولا يأتي بالفروع والتفصيلات، وتراه يستبعد كل ما هو معقد من هذا الموضوع ويكثر من الأمثلة.

ـ وإن كانت غايته وضع مرجع موسع للمتخصصين في هذا الموضوع استقصى، وجاء بالفروع والتفصيلات، وجمع كل ما يتصل بموضوعه، وكان له منهج يخالف المنهج السابق في معظم الأمور.

ـ وإن كانت غايته الرد على رأي مغلوط كان له منهج ثالث.. وهكذا..

وقد تكلم العلماء حول غايات التأليف ومقاصده:

ـ فعقد ابن خلدون فصلاً في «مقدمته» في المقاصد السبعة التي ينبغي اعتمادها بالتأليف.

قال: «ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بموضوعه، وتقويم أبوابه وفصوله، وتتبع مسائله أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب في الصحف لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتواليفهم، فيجدها مستغلقة

على الأفهام، ويفتح الله في فهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه لتصل الفائدة لمستحقها، وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله، وبعد في الإفادة صيته، ويستوثق من ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده..

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قدنقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وخامسها: أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسألة في بابها..

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى، فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله، فيفعل ذلك ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم.

وسابعها: أن يكون الشيء من التواليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسهباً، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز

وحذف المتكرر إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول. .[٨]

ـ وذكر حاجي خليفة قريباً من ذلك فقال:

ثم إن التأليف على سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي:

إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه.

أو شيء ناقص يتممه.

أو شيء مغلق يشرحه.

أو شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه.

أو شيء متفرق يجمعه.

أو شيء مختلط يرتبه.

أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه[٩]

ـ ونقل الأستاذ جمال الدين القاسمي عن أبي حيان قولَه: ينبغي ألا يخلو تصنيف من أحد المعاني التي تصنف لها العلماء، وهي:

اختراع معدوم، أو جمع متفرق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مختلط، أو تعيين مبهم؛ أو تبيين خطأ[١٠].

---

(٨) مقدمة ابن خلدون ٤/١٣٤٧ ـ ١٣٥٠ ط. علي عبد الواحد وافي.

(٩) «كشف الظنون» ١/ ٣٥.

(١٠) «قواعد التحديث» ص٧ (الطبعة الاولى).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن الواضح أن هذه الغايات تتحكم في مناهج المؤلفين، وتلزمهم بخطة تحقق الغاية التي يستهدفونها.

وقد تحمل الظروف العامة السياسية والاجتماعية في عصر من العصور المؤلفين على اختطاط نهج في التأليف من أجل تحقيق غاية جليلة، كما حدث عندما قامت الحروب الطاحنة بين المسلمين والصليبيين والتتار، وكانت النكبات تستهدف ديار المسلمين، تدمّر وتخرّب، وتأتي على كثير من مظاهر حضارتنا. فلقد حملت هذه الظروف العامة، العلماء حينذاك على التخوف على هذه الثقافة أن تضيع البقية الباقية منها، فكان ذلك سبباً لقيام منهج جديد في التأليف هو منهج الموسوعات الثقافية الكبيرة[11] من نحو «**صبح الأعشى**» للقلقشندي و«**نهاية الأرب**» للنويري و«**مسالك الأبصار**» للعمري... الخ.

وينبغي أن نقرر أثر مدرستي **الأثر، والرأي** في مناهج التأليف.

فلقد كان لهذين الاتجاهين اللذين عرفا في كل شُعب الثقافة الإسلامية، أكبر الأثر على مناهج التأليف في كل العصور.

عرفنا هذين الاتجاهين في الفقه، والتفسير، واللغة والنحو وغيرها.

أما أولهما: فكان يحتكم إلى المأثور ويعتمده ولا يجاوزه، ويلتزم

---

(١١) أنظر في ذلك كتاب «الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي» ص ٣١٥ لعبد اللطيف حمزة وكتاب «القلقشندي في صبح الأعشى» لعبد اللطيف حمزة ص١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الرواية.. وكل ما يمكن بذله من جهود هو التأكد من صحة الأسانيد، ثم الترجيح بين الروايات المختلفة إذا تقاربت درجاتها، ثم التوفيق بين مدلولاتها إذا كانت من درجة واحدة. ثم ترتيبها.

وأما ثانيهما فكان يعطي العقل سلطة واسعة، ويعمل في المحاكمة والمناقشة وعرض القضية عرضاً عقلياً محضاً، ويطبق بعض القواعد الأساسية المعروفة في علم المنطق.

وقد يغالي بعضهم مغالاة فاحشةفيعطي العقل[١٢] أكثر مما ينبغي له ويحمله ما لا طاقة له به.

قال ابن خلدون: إن العلوم صنفان:

- صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره.

- وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه.

والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره..

والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول[١٣].

وقد تفاعل هذان الاتجاهان وأثّر كل منهما في الآخر، وكان منهما فيما بعد اتجاه وسطحاول أن يجمع المحاسن الموجودة فيهما.

---

(١٢) أو قل الهوى.

(١٣) مقدمة ابن خلدون ص٣٦٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أنواع المؤلفات

نستطيع أن نقسم المؤلفات التي وصلت إلينا باعتبارين:

ـ باعتبار المقدار.

ـ باعتبار طبيعتها.

١ـ فمن ناحية المقدار نميز ثلاثة أصناف:

أـ مختصرات: تجعل تذكرة لرؤوس المسائل، وهي تعين العالم على استحضار مسائل العلم المنبثة عادة في ثنايا البحوث، وتفيده لأنها توقفه على أكبر قدر من عناوين قضايا العلم وخطوطها العريضة وعناصرها الرئيسية. ولكنها لا تصلح أن تكون طريقة تعليمية.

ب ـ ومبسوطات: وهي تقابل المختصرات وينتفع بها طالب العلم للمطالعة.

جـ ـ ومتوسطات: وهذه نفعها عام [١٤].

وقد هاجم ابن خلدون في مقدمته المختصرات وعقد فصلاً عنوانه: «كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم».

وقال في هذا الفصل: «ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء، يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم، يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. وصار ذلك مخلاً

---

(١٤) انظر «كشف الظنون» ١/ ٣٥.

بالبلاغة، وعسراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعل ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية. . وأمثالهما وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم كما سيأتي، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها؛ لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم من تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة، بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة[١٥].

وواضح أن نقد ابن خلدون لهذا النوع موجه إلى من يضع المختصر بين أيدي المتعلمين المبتدئين ويلزمهم بدراسته.

٢ـ ومن ناحية طبيعتها نميز ستة أصناف هي:

أ ـ كتب ذات قيمة تاريخية: وأهمية هذه الكتب للدور التاريخي الذي لعبته في نشوء العلم إذ تعطينا صورة لبداية هذا العلم وتساعدنا

---

(١٥) مقدمة ابن خلدون ٤/ ١٣٥٢ تحقيق وافي.

على إدراك التطورات التي طرأت عليه بعد ذلك.

ب ـ مراجع عامة: وتشمل دوائر المعارف والمعجمات بأنواعها المختلفة.

جـ ـ مراجع خاصة: وتشمل المطولات المؤلفة في علم من العلوم.

د ـ دراسات علمية: وهي كتب عالجت ناحية من نواحي العلم بتوسع وفصلت القول فيها.

هـ ـ كتب مدرسية: وهي الكتب التي توضع للطلاب تعرّفهم بحقائق العلم، وتأخذ بأيديهم ليعرفوا المصطلحات المستعملة في ذلك العلم، ولا بد فيها من الوضوح والتركيز وضرب الأمثلة.

و ـ كتب تطبيقية: وهي كتب نافعة جداً لطلبة العلم مثل كتب إعراب الشواهد، وكتب الفتاوى، وبعض كتب النقد، وكتب التمارين في الرياضيات.

الأطر التأليفية:

اقتضت الحاجة التعليمية أن توجد أطر توضع ضمنها المعلومات، وهذه الأطر هي: المتن والشرح والحاشية والتقرير.

وهذه القوالب هي التي كانت أكثر شيوعاً وتداولاً بين المؤلفين وطلبة العلم، وهناك أنواع أخرى من القوالب التأليفية مثل الذيل، والمستدرك، ولن أعرض لها الآن، وسيقتصر حديثي على القوالب التي حتمتها الضرورة التعليمية.

١ـ المتن:

المتن «في اللغة»: اللحم الذي يكتنف العمود الفقري عن يمين وشمال وقد يطلق على الظهر ويذكّر ويؤنّث.

وفي الظهر متنان وهما ما يكتنفان الصلب عن يمين وشمال من عصب ولحم والمتنة لغة في المتن. قال امرؤ القيس يصف فرسه:

كأن على المتنين منه إذا انتحى
مداك عروس أو صلاية حنظل[١٦]

وقال يصف فرسه أيضاً:

لها متنتان خظاتا كما
أكبّ على ساعديه النمر[١٧]

وقال أبو البقاء: المتن الظهر وما ينتهي إليه السند من الكلام[١٨]

---

(١٦) انتحى: وقف في ناحية البيت. والمداك: الحجر الذي يداك به الطيب أي يسحق. والصلاية: الصخرة الملساء يدق بها لب الحنظل. وقد روي هذا البيت في نسخة من نسخ الديوان، وفي بعض كتب المختارات على وجه آخر يخالف الرواية التي أثبتناها.

(١٧) ديوان امرىء القيس: ١٤ وخظاتا: كثيرتا اللحم مكتنزتان صلبتان وجاء في «شرح الديوان» تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ص ١٦٤: «أراد متنتان خظاتان» فألقى النون، ودل على ذلك قول أبي داود:

ومتنتان خظاتان كزحلوف من الهضب

وقوله «خظاتان»: يعني مكتنزتين قليلاً، وذهب الى الصلابة وفي وصفه لا إلى كثرة اللحم. وقوله «كما أكب على ساعديه النمر» أراد كساعدي النمر البارك في غلظهما».

(١٨) الكليات ٤/٣٠٨ طبعة دمشق ١٩٧٦.

وجاء في «المصباح المنير»: «متن الشيء متانة اشتد وقوي. . والمتن الظهر».

وقال ابن فارس: «المتنان مكتنفا الصلب من العصب واللحم، وزاد الجوهري عن يمين وشمال». هذا في اللغة. قال الشيخ نصر الهوريني: وأما إطلاق المتن على الكتاب الذي يقابل الشرح فهو من استعمال المولدين تشبيهاً له بظاهر الظهر في القوة والاعتماد»[١٩].

قال الخفاجي: «والمقصود هنا بيان ما استعمله المولدون في الكتاب الأصل الذي لكتب أصول المسائل، ويقابله الشرح. وهذا لم يرد عن العرب، وإنما هو مما نقله العرف، تشبيهاً له بالظهر في القوة والاعتماد»[٢٠].

ويبدو أن المتن بمفهومه ـ لا باسمه ـ عرف من زمن متقدم غير أن إطلاق هذا الاسم تأخر عن ذلك.

ولعل منشأ إطار «المتن» كان تطوراً للمختصرات؛ ذلك لأن المختصرات كانت هي الخطوة الأولى في نشوء المتن.

وكلمة «المختصر» توحي أن هذا الكتاب الصغير الحجم اختصار لمعلومات وردت في كتب ذلك العلم أو اختصار لكتاب آخر مطول وإن كان الاختصار الثاني جاء متأخراً، ثم جاء عصر اختصرت فيه هذه المختصرات.

---

(١٩) انظر تعليق الشيخ نصر الهوريني في حاشية على القاموس مادة: متن.

(٢٠) «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» ص ١٨٨ تأليف شهاب الدين أحمد الخفاجي ـ ط مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥هـ.

ولعلهم سمّوا هذه المختصرات العلمية بالمتون؛ لأنها تتضمن المسائل الأساسية التي يُحمل عليها غيرها، كما أن الظهر أساس للركوب والحمل (!) ويقول أستاذنا مصطفى الزرقا:

«.. ولكنها عندما ظهرت قديماً كان الغرض منا حكيماً وهو جمع المسائل الأولية البسيطة في متون صغيرة بعبارة سهلة لتكون مبادىء لشداة الفقه»[٢١].

ولا بد من أن يتوافر في المتن ما يأتي:

١ ـ أن يكون شاملاً لمباحث العلم كله.

٢ ـ أن تذكر فيه رؤوس المسائل بشكل لا تفصيل فيه ولا توسع.

٣ ـ أن تكون عبارته موجزة، وأمثلته مقتضبة.

من أجل ذلك كان الغالب على المتون صغر الحجم، وهناك من المتون ما يكون أكبر من ذلك لأنها درجات.

ثم كثر اختصار المطولات، فعمد عدد من المؤلفين إلى بعض الكتب المطولة فاختصروها لطلابهم في كتب صغيرة، وكثفوا المعلومات، وعلى تقدم الزمان أصبح المؤلفون يتبارون في ضغط المعلومات ضغطاً شديداً بأوجز عبارة ممكنة، حتى تصل إلى ما يقرب من الألغاز وتكاد كل كلمة أو جملة تشير إلى بحث واسع أو مسألة تفصيلية يعملون ذلك ليحفظها الطلبة عن ظهر قلب.

ومن أقدم المتون التي وصلت إلينا:

---

(٢١) «المدخل الفقهي» للزرقا ص ١٩٩.

ـ «الفصيح» لثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ، وقد اختار فيه مؤلفه الفصيح من كلام العرب مما يجري في كلام الناس [٢٢].

وللشيخ أبي سهل الهروي المتوفى سنة ٤٢١ هـ شرح عليه سمّاه «التلويح في شرح الفصيح»[٢٣].

ـ ومن المتون القديمة التي وصلت إلينا:

«مختصر الخرقي» لعمر بن حسين الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤هـ وهو من أهم كتب الفقه المختصرة عند الحنابلة ومن أقدمها[٢٤].

وقد اشتهر هذا المختصر وأثنى عليه العلماء، وشرحه جماعة من أعيان المذهب، منهم القاضي أبو يعلى وأبو علي بن البنا والشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المتوفى سنة٦٢٠هـ وسمّى شرحه «المغني» وهو من أهم كتب الإسلام.

ـ ومن المتون القديمة التي وصلت إلينا:

« اللمع» [٢٥] لابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ وعلى هذا الكتاب شروح عدة

---

(٢٢) طبع هذا الكتاب في ليبزج سنة ١٨٧٦م في نحو ٧٠ صفحة وطبع في مصر وذكرت نشرة مكتبة المثنى أن عبد المنعم خفاجي حققه.

(٢٣) طبع في مصر سنة ١٢٨٩ هـ ومعه ذيل على «الفصيح» لموفق الدين البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩هـ.

(٢٤) طبع في دمشق لأول مرة طبعة جيدة محققة في المكتب الإسلامي بعناية الأستاذ زهير الشاويش سنة ١٣٧٨ ثم أعاد تحقيقه وطبعه في بيروت ١٤٠٣هـ.

(٢٥) «كتاب اللمع» طبع في الكويت سنة ١٣٩٢هـ «١٩٧٢م» بتحقيق فائز فارس نشر دار الكتب الثقافية ثم طبع في مصر بتحقيق د.حسين محمد شرف سنة ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩م نشر: عالم الكتب بالقاهرة.

قال أبو علي بن البنا في أول شرحه لـ «مختصر الخرقي»[٢٦]:

وكان بعض شيوخنا يقول: «ثلاثة مختصرات في ثلاثة علوم، لا أعرف لها نظيراً: الفصيح لثعلب، واللمع لابن جني، وكتاب الخرقي ما اشتغل بها أحد وفهمها كما ينبغي إلا أفلح»[٢٧].

وربما كان المختصر أفضل من الأصل.

نقل أبو الحسن الشاري في «فهرسته» عن شيخه أبي ذر أنه كان يقول: (المختصرات التي فضلت على الأمهات أربعة: مختصر العين[٢٨] للزبيدي (ت ٣٧٩) ومختصر الزاهر[٢٩] للزجاجي (ت ٣٤٠) ومختصر سيرة ابن اسحاق لابن هشام[٣٠] (ت ٢١٨)، ومختصر الواضحة[٣١] للمفضل بن سلمة (ت ٢٩٠)[٣٢].

ومن المتون القديمة «مختصر المزني»[٣٣] في فروع الشافعية للشيخ

---

(٢٦) هو مختصر من فقه الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ومسائله وقد ذكرناه قبل قليل، وشرحه هذا هو واحد من شروح كثيرة زادت على ٣٠٠ شرح.

(٢٧) «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» للعليمي ٢/ ٥١ رقم الترجمة ٦٠٨.

(٢٨) كتاب «العين» للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ وقد شرع بطبعه.

(٢٩) كتاب «الزاهر في معاني الكلام الذي يستعمله الناس» لمحمد بن القاسم الأنباري النحوي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ.

(٣٠) سيرة ابن إسحاق لمحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ.

(٣١) في «كشف الظنون» ١٩٩٦: الواضحة في إعراب القرآن لعبد الملك بن حبيب المتوفى ٢٣٩هـ.

(٣٢) أنظر «المزهر» ١/ ٨٧.

(٣٣) أنظر «كشف الظنون» ٢/ ١٦٣٥.

إسماعيل بن يحيى المزني المتوفى سنة ٢٦٤ هـ وقد شرحه أبو إسحاق المروزي المتوفى سنة ٣٤٠ هـ وشرحه أيضاً أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري المتوفى سنة ٤٤٥ هـ.

هذا وقد تستعمل كلمة (المتن) لتقابل كلمة (الشرح) ولا يراد بها المعنى الذي أشرنا اليه كما نقول مثلاً:

صحيح البخاري متن وشرحه ابن حجر.

وحماسة أبي تمام متن وشرحها المرزوقي.

والمتون على نوعين هما:

١ ـ المتون النثرية وهي الأكثر وجوداً.

٢ ـ المتون الشعرية وهي المنظومات التي تنظم أبواب العلم وغالباً ما تكون أراجيز. وقد تكون على بحور أخرى، وهي نوعان: إما أن تكون نظماً للعلم أو أن تكون نظماً لكتاب، أما الأولى فكألفية ابن مالك وأما الثانية فكنظم العمريطي لمتن الغاية.

والمتون أنواع [٣٤]:

١ـ فمنها المختصر جداً.. وهو أكثرها.

٢ـ ومنها المتوسط.

٣ـ ومنها المفصل.

---

(٣٤) انظر «الكتاب المدرسي فلسفته تاريخه أسسه تقويمه استخدامه» تأليف أبو الفتوح رضوان وعبد الحميد السيد ومحمد الهادي عفيفي ومحمد أحمد الغنام.

ولطريقة المتون محاسن وعيوب.

أما محاسنها فهي ضبط مادة العلم في ذهن طلبة العلم واستحضارها دائماً وقد كان الطلاب يستظهرون هذه المتون، ويظلون يرددونها بين الحين والحين.

وعيوبها أن من اقتصر عليها كان محدود الأفق ضيق النظرة، تغلب عليه الناحية اللفظية التي تجور على المعنى والحقائق في كثير من الأحيان.

قال الأستاذ مصطفى الزرقا يحدثنا عن المتون في الفقه وهذا الكلام ينطبق إلى حد ما على العلوم الأخرى قال:

(ولكن المتون انقلبت في العصر المبحوث عنه الى طريقة عامة تعقيدية في تأليف الفقه حتى أن من يريد أن يترك له أثراً وذكراً علمياً لا يفكر أن يخدم العلم بمؤلف مستقل يعمد به إلى التجديد في أسلوب الفقه ولغته، وفي تنقيحه وتقسيمه، وترتيبه، وتبويبه، والرجوع بمسائله المشتتة في غير أبوابها ومناسباتها . . بل كان كل مؤلف متأخر يحصر جهده في وضع حاشية على شرح أو شرح على متن معقد أو يضع متناً على نسق سائر المتون الاختزالية اللغزية التي تقدمته)[٣٥].

نماذج من المتون:

١ـ متون قديمة:

جاء في الخرقي: (والمأموم اذا سمع قراءة الامام فلا يقرأ بالحمد ولا

(٣٥) «المدخل الفقهي» ص ٢٠٠.

بغيرها لقول الله تعالى: ﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**﴾، ولما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما لي أُنازع القرآن؟» قال فانتهى الناس أن يقرءوا فيما جهر فيه النبي صلى الله عليه وسلم.

والاستحباب أن يقرأ في سكتات الإمام وفيما لا يجهر فيه، فإن لم يفعل فصلاته تامة لأن من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة. ويسر القراءة في الظهر والعصر، ويجهر بها في الأوليين من المغرب والعشاء وفي الصبح، كلها الجهر في موضع الجهر، والإسرار في مواضع الإسرار.

وجاء في المهذب للشيرازي: (والمستحب أن يمسح جميع الرأس فيأخذ الماء بكفيه، ثم يرسله، ثم يلصق طرف سبابته بطرف سبابته الأخرى، ثم يضعهما على مقدم رأسه ويضع إبهاميه على صدغيه، ثم يذهب بهما الى قفاه، ثم يردهما إلى المكان الذي بدأ منه لما روي أن عبد الله بن زيد رضي الله عنه وصف وضوء رسول الله ﷺ «فمسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه» ولأن منابت شعر الرأس مختلفة، ففي ذهابه يستقبل الشعر من مؤخر رأسه فيقع المسح على ظاهر الشعر فإذا رد حصل المسح على ما لم يمسح في ذهابه).

وجاء في «ايساغوجي» لأثير الدين المفضل بن عمر الأبهري من رجال القرن السابع، و«ايساغوجي» لفظ يوناني معناه الكليات الخمس، أي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام.

قال: (القول الشارح: الحد قول دال على ماهية الشيء، وهو الذي يتركب من جنس الشيء وفصله القريبين، كالحيوان الناطق بالنسبة إلى الإنسان وهو الحد التام. والحد الناقص وهو الذي يتركب من جنس الشيء البعيد وفصله القريب، كالجسم الناطق بالنسبة الى الإنسان. والرسم التام وهو الذي يتركب من جنس الشيء القريب وخواصه اللازمة له كالحيوان الضاحك في تعريف الإنسان. والرسم الناقص، وهو الذي يتركب من عرضيات تختص جملتها بحقيقة واحدة، كقولنا في تعريف الإنسان: إنه ماش على قدميه عريض الأظفار، بادي البشرة، مستقيم القامة، ضحّاك بالطبع).

وجاء في «الأجرومية» لمحمد بن محمد الأجرومي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ:

(باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر: وهي ثلاثة أشياء: كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظننت وأخواتها.

فأما كان وأخواتها فإنها ترفع الاسم وتنصب الخبر، وهي: كان وأمسى وأصبح وأضحى وظل وبات وصار وليس ومازال ومانفك ومافتيء ومابرح ومادام. وما تصرف منها نحو كان ويكون وكن، وأصبح ويصبح وأصبح.

تقول كان زيد قائماً، وليس عمرو شاخصاً وما أشبه ذلك.

وأما إن وأخواتها فإنها تنصب الاسم وترفع الخبر، وهي: إن وأن ولكن وكأن وليت ولعل.

تقول: إن زيداً قائم، وليت عمراً شاخص، وما أشبه ذلك.

ومعنى إن وأن للتوكيد، ولكن للاستدراك، وكأن للتشبيه، وليت للتمني، ولعل للترجي والتوقع.

وأما ظننت وأخواتها، فإنها تنصب المبتدأ والخبر على أنهما مفعولان لها، وهي: ظننت وحسبت وخلت وزعمت ورأيت وعلمت ووجدت واتخذت وجعلت وسمعت.

تقول: ظننت زيداً منطلقاً وخِلْتُ عمراً شاخصاً.

وجاء في «قطر الندى» لأبي محمد عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام المتوفى سنة ٧٦٢ هـ: (والبدل، وهو تابع مقصود بالحكم بلا واسطة، وهو ستة: بدل كل نحو (مفازا حدائق) وبعض نحو (من استطاع) واشتمال نحو (قتال فيه) وإضراب وغلط ونسيان، نحو (تصدقت بدرهم دينار) بحسب قصد الأول والثاني أو الثاني وسبق اللسان، أو الأول وتبين الخطأ).

ويحسن أن أورد بعض النماذج لمتون شعرية نظمت مسائل العلم في أبيات تقل وتكثر على حسب التفصيل أو الإجمال.

ومما جاء في «متن الزبد» في فقه الشافعية لأحمد بن حسين بن رسلان المتوفى ٨٤٤ هـ:

• باب سجود السهو •

قبيل تسليم تسن سجدتاه ... لسهو ما يبطل عمده الصلاه
وترك بعض عمداً او لذهل ... لا سنة بل نقل ركن قولي

وكل ركن قد تركت ساهيا ما بعده لغو الى أن تأتيا
بمثله فهو ينوب عنه ولو بقصد النفل تفعلنه
ومن نسي التشهد المقدما وعاد بعد الانتصاب حرما
وجاهل التحريم أو ناسٍ فلا يبطل عوده، والا أبطلا
لكن على المأموم حتماً يرجع إلى الجلوس للإمام يتبع
وعائد قبل انتصاب يندب سجوده إذ للقيام أقرب
ومقتد لسهوه لن يسجدا لكن لسهو من به قد اقتدى
وشكه قبل السلام في عدد لم يعتمد فيه على قول أحد
لكن على يقينه وهو الأقل وليأت بالباقي ويسجد للخلل

وجاء في أرجوزة «بغية الباحث عن جمل الموارث» المعروفة بالرحبية لمحمد بن علي الرحبي المتوفى سنة ٥٧٧ هـ:

• باب الثلث •

والثلث فرض الأم حيث لا ولد ولا من الأخوة جمع ذو عدد
كاثنين أو ثنتين أو ثلاث حكم الذكور فيه كالإناث
ولا ابن ابن معها أو بنته ففرضها الثلث كما بينته
وإن يكن زوج وأم وأب فثلث الباقي لها مرتب
وهكذا مع زوجة فصاعدا فلا تكن عن العلوم قاعدا
وهو للإثنين أو ثنتين من ولد الأم بغير مين
وهكذا إن كثروا أو زادوا فما لهم فيما سواه زاد
ويستوي الإناث والذكور فيه كما قد أوضح المسطور

٢ـ الشرح:

الشرح لغة ـ كما جاء في «القاموس المحيط» ـ الكشف، والقطع، والفتح والفهم.

قال ابن فارس في «**المقاييس**» (٣/ ٢٦٩): (الشين والراء والحاء أصيل يدل على الفتح والبيان. من ذلك شرحت الكلام وغيره شرحاً إذا بينته واشتقاقه من تشريح اللحم).

وجاء في «**المصباح المنير**»: (**شرح الله صدره للاسلام شرحاً: وسعه لقبول الحق.. وشرحت الحديث شرحاً بمعنى فسرته وبينته وأوضحت معناه وشرحت اللحم: قطعته طولاً**).

ومعنى الشرح هنا ما يقابل المتن. ولهذا المعنى الاصطلاحي صلة وثيقة بالمعنى اللغوي. فهو كتاب وضع على المتن لإيضاح عباراته وتفصيل ما أجمل فيه من مسائل العلم والتوسع فيها.

والأصل في الكتاب أن يوضع على حال لا يكون فيها محتاجاً إلى شرح.. بل ينبغي أن يفهم بذاته. ولكن الحاجة إلى الشرح كانت بسبب الأمور الآتية:

١ـ شدة الايجاز: فلقد أتى على العلماء حين من الدهر كانوا يرون شدة الايجاز في (المتون)، وهي الكتب التي توضع للطلبة، خاصَّة لا يقوى عليها إلا من أوتي المهارة الفائقة[٣٦] حتى أن كثيراً من المتون

(٣٦) «كشف الظنون»: ١/ ٣٦، ٣٧.

بلغ حد الرموز والألغاز بسبب المبالغة في الايجاز والاختصار وضغط العبارة وتحميل اللفظ القليل المعاني الكثيرة.

قال الأستاذ أبو زهرة: (.. وقد جاء العلماء فلخصوا هذه الكتب ثم اختصرت هذه التلخيصات فاحتاجت المختصرات الى شروح واستفاضت الأقلام في هذه الشروح.. وقد اختصر الكتابين المذكورين كثيرون وكان الاختصار شديداً أحياناً حتى بلغ حد الرموز، ثم جاءت الشروح تحل هذه الرموز..)[٣٧].

وعند دراسة المتن ومحاولة فهمه كانت تبدو مشكلات عويصة نشأت من غموض الجمل، فكانت الحاجة الى ما يوضح هذه المشكلات.. وكان من أجل ذلك الشرح، وقد يبلغ المتن من الرمزية والغموض مبلغاً كبيراً بحيث لا يستطيع كثير من الناس فهم مراده إلا بصعوبة، ومن هنا عمد بعض العلماء إلى شرح كتبهم.

٢ـ حذف بعض مقدمات الأقيسة اعتماداً على وضوحها، أو لأنها من علم آخر، أو إهمال ترتيب بعض الأقيسة مما أدى إلى إغفال علل القضايا وعندئذ يحتاج الشارح إلى أن يذكر المقدمات المهملة ويبين ما يمكن بيانه في ذلك العلم.

٣ـ احتمال اللفظ لمعان تأويلية، أو لطافة المعنى ودقته عن أن يعبر عنه بلفظ يوضحه، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف[٣٨].

---

(٣٧) «أصول الفقه»: ٢٠.

(٣٨) «كشف الظنون» ١/ ٣٦، ٣٧.

٤ـ وقد يقع في بعض التصانيف ما لا يخلو البشر عنه من السهو والغلط والحذف لبعض المهمات وتكرار الشيء بعينه بغير ضرورة، فيحتاج الشارح إلى أن ينبه عليه[٣٩].

وواضح أن ظهور الشرح كان متأخراً عن زمن ظهور المتن، وقد مر معنا آنفا أن أبا إسحاق المروزي المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ألف شرحاً على مختصر المزني، وربما كان قبل المروزي شروح لبعض المصنفات والمتون، مما يدل على ظهور فكرة الشرح في وقت مبكر.

أنواع الشروح وأساليبها:

نستطيع أن نميز نوعين من الشروح:

١ـ شرح يكون على متن كالألفية مثل شرح ابن عقيل وشرح الأشموني وشرح ابن هشام على ألفية ابن مالك.

٢ـ شرح يكون على أصل كالمعلقات السبع أو العشر، وكصحيح البخاري وكديوان الحماسة فقد شرح كلاً من هذه الأصول عدد من العلماء، وشروحهم معروفة متداولة.

وأحسب أن الفرق بين ما دعوناه أصلاً وبين المتن واضح من الأمثلة التي ذكرناها.

فالمتن كتاب تعليمي وضع على وجه الإيجاز ليحفظه طلبة العلم وهو محيط بأبواب العلم كلها.

---

(٣٩) «كشف الظنون» ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

أما الأصل فليس كذلك، فإما أن يكون ديوان شعر لشاعر، أو مختارات أو يكون كتاباً جامعاً لأحاديث من نوع ووفق شروط معينة، كالكتب الستة (البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه).

أما أساليب الشروح فنذكر منها ما يأتي:

١ـ الشرح الممزوج: وفيه يدمج الشارح المتن بكلامه ويمزجهما ويؤلف منهما كتابه، ويميز بين المتن والشرح بوضع المتن بين الأهلة (الأقواس) وبوضع خط فوق كلام المتن.

وهذه طريقة أكثر الشراح المتأخرين من المحققين.

وإليك بعض الأمثلة:

جاء في متن أبي شجاع ما يأتي:

(فصل. ولا يصح عقد النكاح إلا بولي وشاهدي عدل. ويفتقر الولي والشاهدان إلى ستة شرائط: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة والعدالة. وأولى الولاة الأب ثم الجد أبو الأب ثم الأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم ابن الأخ للأب والأم ثم ابن الأخ للأب ثم العم ثم ابنه على هذا الترتيب).

وجاء في شرح الخطيب الشربيني المعروف بـ«الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع» ٣/ ٣٢٦:

(**فصل في أركان النكاح : وهي خمسة**: صيغة وزوجة وزوج وولي ـ وهما العاقدان ـ وشاهدان. وعلى الأخيرين، وهما الولي

والشاهدان، اقتصر المصنف مشيراً إليهما بقوله: **(ولا يصح عقد النكاح إلا بولي)** أو مأذونه أو القائم مقامه، كالحاكم عند فقده أو غيبته الشرعية أو عضله أو إحرامه (و) حضور **(شاهدي عدل)** لخبر ابن حبان في «صحيحه» عن عائشة رضي الله تعالى عنها «لانكاح إلا بولي وشاهدي عدل. وما كان من نكاح على غير ذلك فهو باطل، فإن تشاحوا فالسلطان ولي من لا ولي له» والمعنى في إحضار الشاهدين الاحتياط للابضاع وصيانة الأنكحة عن الجحود. ويسن إحضار جمع زيادة على الشاهدين من أهل الخير والدين(ويفتقر الولي والشاهدان) المعتبرون لصحة النكاح **(إلى ستة شرائط)** بل إلى أكثر كما سيأتي. **(الاسلام) وهو في ولي المسلمة إجماعاً، وسيأتي أن الكافر يلي الكافرة. وأما الشاهدان فالاسلام شرط فيهما، سواء أكانت المنكوحة مسلمة أم ذمية، إذ الكافر ليس أهلاً للشهادة.**

(و) الثاني **(البلوغ)**، (و) الثالث **(العقل)** فلا ولاية لصبي ومجنون وليسا من أهل الشهادة (و) الرابع **(الحرية)** فلا ولاية لرقيق ولا يكون شاهداً (و) الخامس **(الذكورة)** فلا تملك المرأة تزويج نفسها بحال، لا بإذن ولا بغيره، سواء الإيجاب والقبول، إذ لا يليق بمحاسن العادات دخولها فيه لما قصد منها من الحياء وعدم ذكره أصلاً، وقد قال الله تعالى: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ ولا تزوج غيرها بولاية ولا وكالة لخبر «**لا تزوج المرأة المرأة، ولا المرأة نفسها**» نعم لو ابتلينا والعياذ بالله تعالى بإمامة امرأة فإن أحكامها تنفذ للضرورة كما قال ابن عبد السلام وغيره وقياسه تصحيح تزويجها.

ولا يعتبر إذن المرأة في نكاح غيرها إلا في ملكها، أو في سفيه أو مجنون هي وصية عليه.

وليست المرأة أهلاً للشهادة، فلا ينعقد النكاح بشهادة النساء ولا برجل وامرأتين لأنه لا يثبت بقولهم..

(و)السادس (**العدالة**) وهي ملكة في النفس تمنع من اقتراف الذنوب ولو صغائر الخسة والرذائل المباحة، فلا ينعقد بولي فاسق، غير الإمام الأعظم، مجبراً كان أم لا، فسق بشرب الخمر أم لا، أعلن بفسقه أم لا، لحديث «لا نكاح إلا بولي مرشد» قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: والمراد بالمرشد العدل. وأفتى الغزالي رحمه الله تعالى بأنه لو كان سلب الولاية لانتقلت الى حاكم فاسق ولي، وإلا فلا، قال: ولا سبيل إلى الفتوى بغيره، إذ الفسق قد عم البلاد والعباد.

والأوجه إطلاق المتن، لأن الحاكم يزوج للضرورة، وقضاؤه نافذ. أما الإمام الأعظم فلا يقدح فسقه لأنه لا ينعزل به فيزوج بناته وبنات غيره بالولاية العامة تفخيماً لشأنه فعليه إنما يزوج بناته إذا لم يكن لهن ولي غيره كبنات غيره...)

٢ـ الشرح باستعمال هاتين الكلمتين (**قال**) **للمتن و** (**أقول**) للشرح كشرح «**المقاصد**» **وشرح** «**الطوالع**» للأصفهاني.

وقد يكتب المتن في هذا الأسلوب في بعض النسخ بتمامه، وربما لا يكتب لكونه مندرجاً في الشرح بلا امتياز.

ومن الشروح التي تستعمل (**قال وأقول**) «شرح شذور الذهب»

لابن هشام ولما كان مؤلف المتن هو الشارح كان هذا الكتاب مبنياً على قوله **(قلت) للمتن و (أقول) للشرح . . وإليك المثال الآتي:**

(ثم قلت: فصل وإذا أتبع المنادى ببدل أو نسق مجرد من «أل» فهو كالمنادى المستقل مطلقاً، وتابع المنادى المبني غيرهما يرفع أو ينصب، إلا تابع «أي» فيرفع، وإلا التابع المضاف المجرد من «أل» فينصب، كتابع المعرب. وأقول: لتوابع المنادى أحكام تخصها: فلهذا أفردتها بفصل.

والحاصل أن التابع إذا كان بدلاً أو نسقاً مجرداً من «أل» فإنه يستحق حينئذ ما يستحقه لو كان منادى، تقول في البدل «يازيد كرز» بالضم، كما تقول **«ياكرز»** وكذلك **«يا عبد الله كرز»** وفي النسق **«يا زيدُ وخالدُ»** بالضم، كما تقول «يا خالد» وكذلك «يا عبد الله وخالد» لا فرق في البابين المذكورين بين كون المنادى معرباً أو مبنياً وإن كان التابع غير بدل ونسق مجرد من «أل» : فإن كان المنادى مبنياً فالتابع له ثلاثة أقسام: ما يجب رفعه وما يجب نصبه، وما يجوز فيه الوجهان: فالواجب رفعه نعت «أي» نحو: **﴿يأيها الإنسان﴾ ﴿يأيها الناس﴾**، وعن المازني إجازة نصبه، وأنه قرىء **﴿قل يأيها الكافرين﴾** وهذا ان ثبت فهو من الشذوذ بمكان. والواجب نصبه التابع المضاف، مثاله في النعت نحو **«يا زيد صاحب عمرو»** ومثاله في التوكيد **«يا تميم كلهم»** أو **«كلكم»** ومثاله في البيان **«يا زيد أبا عبد الله»**. والجائز فيه الوجهان التابع المفرد، نحو «يا زيد الفاضل، والفاضل» و «يا تميم أجمعون،

وأجمعين» و «يا سعيد كرز، وكرزاً» «قال ذو الرمة:

لقائل يا نصر نصراً».

وان كان المنادى معرباً تعين نصب التابع، نحو **«يا عبد الله صاحب عمرو» و «يا بني تميم كلهم» و «يا عبد الله أبا زيد».**

وإذا وجب نصب المضاف التابع للمبني فنصبه تابعاً لمعرب أحق، قال الله تعالى: **﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض﴾ ففاطر**: صفة لاسم الله سبحانه، وزعم سيبويه أنه نداء ثان حذف منه حرف النداء، لأن المنادى الملازم للنداء لا يجوز عنده أن يوصف، وكلمة **«اللهم» لا تستعمل إلا في النداء**[٤٠].

٣ ـ الشرح باستعمال كلمة **«قوله»** كشرح ابن حجر لصحيح البخاري وهذا الأسلوب قليل في شروح المتون، و «فتح الباري» شرح لأصل لا لمتن وسنرى بعد قليل أن هذا الأسلوب يكثر في الحواشي. ولا يلتزم الشارح بذكر كلام الأصل الذي يشرحه كاملاً.. ولكنه يذكر أول الجملة التي يريد شرحها.

ومع ذلك فقد يكتب النساخ (المتن) أو (الأصل) تاماً في الهامش وإليك هذا المثال من «صحيح البخاري» و«فتح الباري»: قال البخاري (**باب: العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ فبدأ بالعلم وان العلماء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل**

---

(٤٠) «شذور الذهب» ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

الله له طريقاً الى الجنة، وقال جل ذكره: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقال: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ وقال: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقال النبيﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما العلم بالتعلم».

وقال أبو ذر: لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار الى قفاه ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبيﷺ قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها وقال ابن عباس: كونوا ربانيين حلماء فقهاء علماء. ويقال الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

﴿قوله باب العلم قبل القول والعمل﴾ قال ابن المنير أراد به ان العلم شرط فى صحة القول والعمل فلا يعتبران الا به فهو متقدم عليهما لانه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه المصنف على ذلك حتى ينبنى الى الذهن من قولهم ان العلم لا ينفع الا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل فى طلبه ﴿قوله فبدأ بالعلم﴾ أى حيث قال فاعلم انه لا اله الا الله ثم قال واستغفر لذنبك والخطاب وان كان للنبى صلى الله عليه وسلم فهو متناول لأمته واستدل سفيان بن عيينة بهذه الآية على فضل العلم كما أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمته من طريق الربيع بن نافع عنه انه تلاها فقال ألم تسمع انه بدأ به فقال اعلم ثم أمره بالعمل وينتزع منها دليل ما يقوله المتكلمون من وجوب المعرفة لكن النزاع كما قدمناه انما هو فى ايجاب تعلم الادلة على القوانين المذكورة فى كتب الكلام وقد تقدم شئ من هذا فى كتاب الايمان ﴿قوله وان العلماء﴾ بفتح أن ويجوز كسرها ومن هنا الى قوله وانفرط من حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم مقتصرا من حديث أبى الدرداء وحسنه حمزة الكنانى وضعفه غيرهم بالاضطراب فى سنده لكن له شواهد يتقوى بها وبه فصح المصنف بكونه حديثا ولهذا لا يعد فى تعاليقه لكن ايراده له فى الترجمة يشعر بأن له أصلا وشاهد من القرآن قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ومناسبته للترجمة من جهة ان الوارث قائم مقام المورث فله حكمه فيما قام مقامه فيه ﴿قوله ورثوا﴾ بتشديد الراء المفتوحة أى الانبياء ويروى بتخفيفها مع الكسر أى العلماء ويؤيد الاول ما عند الترمذى وغيره فيه وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ﴿قوله بحظ﴾ أى نصيب (وافر) أى كامل ﴿قوله ومن سلك طريقا﴾ هو من جملة الحديث المذكور وقد أخرج هذه الجملة أيضا مسلم من حديث الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة فى حديث غير هذا وأخرجه الترمذى وقال حسن قال ولم يقل له صحيح لانه يقال ان الاعمش دلس فيه فقال حدثت عن أبى صالح (قلت) لكن فى رواية مسلم عن أبى اسامة عن الاعمش حدثنا أبو صالح فانتفت تهمة تدليسه ﴿قوله طريقا﴾ نكرها ونكر علما ليتناول أنواع الطرق الموصلة الى تحصيل العلوم الدينية وليندرج فيه القليل والكثير ﴿قوله سهل الله له طريقا﴾ أى فى الآخرة أو فى الدنيا بأن يوفقه للاعمال الصالحة الموصلة الى الجنة وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه لان طلبه من الطرق الموصلة الى الجنة ﴿قوله وقال﴾ أى الله عز وجل وهو معطوف على قوله لقول الله انما يخشى الله أى يخاف من الله من علم قدرته وسلطانه وهم العلماء قاله ابن عباس ﴿قوله ومايعقلها﴾ أى الامثال المضروبة ﴿قوله لو كنا نسمع﴾ أى سمع من يعي ويفهم (أو نعقل) عقل من يميز وهذه أوصاف أهل العلم فالمعنى لو كنا من أهل العلم لعلمنا ما يجب علينا فعملنا به فنجونا ﴿قوله وقال النبى صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه﴾ كذا فى رواية الاكثر وفى رواية المستملى يفهمه بالهاء المشددة المكسورة بعدها ميم ولذا وصله المؤلف باللفظ الاول بعد هذا بابا بن كاملا وأما اللفظ الثانى فأخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب العلم من طريق ابن عمر عن عمر مرفوعا واسناده حسن والفقه هو الفهم قال الله تعالى لا يكادون يفقهون حديثا أى لا يفهمون والمراد الفهم فى الاحكام الشرعية ﴿قوله وانما العلم بالتعلم﴾ هو حديث مرفوع أيضا أورده ابن أبى عاصم والطبرانى من حديث معاوية أيضا بلفظ يا أيها الناس تعلموا انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين اسناده حسن الا أنه يعد بما اعتضد بمجيئه من وجه آخر وروى البزار نحوه عن حديث ابن مسعود موقوفا ورواه أبو نعيم الاصبهانى مرفوعا وفى الباب عن أبى الدرداء وغيره فلا يعتبر بقول من جعله من عذم البخارى

وانما ليس العلم المعتبر الا المأخوذ من الانبياء وورثتهم على سبيل التعلم (قوله وقال أبو ذر الخ) هذا التعليق وصله ابن ماجه موصولا فى مسند الدارمى وغيره من طريق الاوزاعى حدثنى أبو كثير يحيى بن مالك بن مرثد عن أبيه قال أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع عليه الناس يستفتونه فأتاه رجل فوقف عليه ثم قال ألم تنه عن الفتيا فرفع رأسه اليه فقال أرقيب أنت على لو رنعتم فذكر مثله ورويناه فى الحلية من هذا الوجه وبين ان الذى خاطبه رجل من قريش وان الذى نهاه عن الفتيا عثمان رضى الله عنه وكان سبب ذلك انه كان بالشام فاختلف مع معاوية فى تأويل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة فقال معاوية نزلت فى أهل الكتاب خاصة وقال أبو ذر نزلت فينا وفيهم وفينا فكتب معاوية الى عثمان فأرسل الى أبى ذر فحصلت منازعة أدت الى انتقال أبى ذر عن المدينة فسكن الربذة بفتح الراء والموحدة والذال المعجمة الى أن مات رواه النسائى وفيه دليل على ان أبا ذر كان لا يرى طاعة الامام اذا نهاه عن الفتيا لانه كان يرى ان ذلك واجب عليه لامر النبى صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه كما تقدم وأعلم أيضا مع الوعيد فى حق من كتم علما يعلمه وسيأتى لعلى مع عثمان نحوه والصمصامة بهملتين الاولى مفتوحة هو السيف الصارم الذى لا يثنى وقيل الذى له حد واحد (قوله هذه) اشارة الى القفا وهو يذكر ويؤنث وأنفذ بضم الهمزة وكسر الفاء والذال المعجمة أى أمضى وتجهز بإضم المثناة وكسر الجيم وبعد الياء زاى تكلموا تسلى وتكرر كلمة ليشمل القليل والكثير والمراد انه يبلغ ما تحمله فى كل حال ولا ينتهى عن ذلك ولو أشرف على القتل ولو فى كلامه لمجرد الشرط من غير ان يلاحظ الامتناع أو المراد ان الاعانة حاصل على تقدير ومنع الصمصامة وعلى تقدير عدمه حصوله أولى فهو مثل قوله لو لم يخف الله لم يعصه وفيه الحث على تعليم العلم واحتمال المشقة فيه والصبر على الاذى طلبا للثواب (قوله وقال ابن عباس) هذا التعليق وصله ابن أبى عاصم أيضا باسناد حسن والخطيب باسناد آخر حسن وقد فسر ابن عباس الربانى بأنه الحكيم الفقيه وأخذه ابن مسعود فيما رواه ابراهيم الحربى فى غريبه عنه باسناد صحيح وقال الاصمعى الربانى نسبة الى الرب أى الذى يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل وقال ثعلب قبل العلماء ربانيون لانهم يربون العلم أى يقومون به وزيدت الالف والنون للمبالغة والحاصل انه اختلف فى هذه النسبة هل هى نسبة الى الرب أو الى التربية والتربية على هذا العلم وعلى ما حكاه البخارى تعلمه والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله وبكباره ما دق منها وقيل بعلوهم جزئياته قبل كلياته أو فروعه قبل أصوله أو مقدماته قبل مقاصده وقال ابن الاعرابى لا يقال للعالم ربانى حتى يكون عالما عاملا * (فائدة) * اقتصر المصنف فى هذا الباب على ما أورده من غير أن يورد حديثا موصولا على شرطه فاما أن يكون بيض له ليورد فيه ما يثبت على شرطه أو يكون تعمد ذلك اكتفاء بما ذكر والله أعلم

٤ ـ الشرح الذي يعتمد إيراد المتن أولاً، ثم يأتي بعد ذلك بالشرح وقد يشير بعضهم إلى المتن بحرف الصاد (يريد المصنف مرجحاً ذكر أصل المادة: صنف).

وقد يشير بعضهم إلى المتن بحرف الميم (يريد المصنف مشيراً إلى أول حرف من كلمة المصنف).

وإلى الشرح بحرف الشين (يريد الشارح)

وقد يستعمل الحبر الأحمر علامة أيضاً.

وإليك هذا المثال:

جاء في «شرح قطر الندى» ما يأتي: (ص ـ وكذا «لا» النافية في الشعر بشرط تنكير معموليها نحو:

تَعَـزَّ فلا شيء على الأرض باقيا ولاوَزَرٌ ممـا قضى الله واقيا

ش ـ الحرف الثاني مما يعمل عمل ليس «لا» كقوله:

تعـز فلا شيء على الأرض باقيا ولا وزر ممـا قضى الله واقيا

ولإعمالها أربعة شروط: أن يتقدم اسمها، وأن لا يقترن خبرها بإلا، وأن يكون اسمها وخبرها نكرتين، وأن يكون ذلك في الشعر لا في النثر.

فلا يجوز إعمالها في نحو (**لا أفضل منك أحد**) ولا في نحو (**لا أحد إلا أفضل منك**) ولا في نحو (**لا زيد قائم ولا عمرو**) ولهذا غلط المتنبي في قوله:

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

وقد صرحت بالشرطين الأخيرين، ووكلت معرفة الأولين إلى القياس على (ما) لأن (ما) أقوى من (لا) ولهذا تعمل في النثر، وقد اشترطت في (ما) أن لا يتقدم خبرها ،ولا يقترن بإلا ،فأما اشتراط أن لا يقترن الاسم بإن فلا حاجة له هنا، لأن اسم (لا) لا يقترن بإن [٤١].

٥ـ الشرح الذي يعمد الشارح فيه إلى شرح ماورد في المتن دون أن يلتزم بذكر عبارة المتن أبداً، ودون أن يشير إليها بشيء.

مثل كتاب «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك».

وإليك مثالاً منه: قال ابن مالك:

ميّز في الاستفهام كم بمثل ما ... ميّزت عشرين ككم شخصاً سما

وأجز ان تجره من مضمرا ... إن وليت كم حرف جر مظهرا

واستعملنها مخبراً كعشرة ... أو مائة ككم رجال أو مره

ككم كأي وكذا وينتصب ... تمييز ذين أو به صل من نصب

وقال ابن هشام في «أوضح المسالك» في شرح هذه الأبيات ٣/ ٢٢٦:

هذا باب كنايات العدد ـ وهي ثلاثة: كم، وكأي، وكذا.

---

(٤١) «شرح قطر الندى» ١٤٥/ ١٤٧.

أما «**كم**» فتنقسم إلى: استفهامية بمعنى أي عدد، وخبرية بمعنى كثير. ويشتركان في خمسة أمور: كونهما كنايتين عن عدد مجهول الجنس والمقدار، وكونهما مبنيين، وكون البناء على السكون ولزوم التصدير، والاحتياج إلى التمييز.

ويفترقان أيضاً في خمسة أمور أيضاً:

أحدها أن «كم» الاستفهامية تميز بمنصوب مفرد، «كم عبداً ملكت» ويجوز جره بمن مضمرة جوازاً إن جرّت كم بحرف نحو «بكم درهم اشتريت ثوبك» وتميز الخبرية بمجرور مفرد أو مجموع، نحو «**كم رجال جاءوك**» و «**كم امرأة جاءتك**» **والإفراد أكثر وأبلغ**.

والثاني: أن الخبرية تختص بالماضي كرب: لا يجوز «كم غلمان سأملكهم» كما لا يجوز «رب غلمان سأملكهم ويجوز كم عبداً ستشتريه».

والثالث: أن المتكلم بها لا يستدعي جواباً من مخاطبه.

والرابع: أنه يتوجه إليه التصديق والتكذيب.

والخامس: أن المبدل منها لا يقترن بهمزة الاستفهام، تقول «كم رجال في الدار عشرون بل ثلاثون» ويقال «كم مالك أعشرون أم ثلاثون؟»

تنبيه: يروى قول الفرزدق:

كم عمّة لك يا جرير وخالة فَدْعَاء قد حلبت عليّ عشاري

بجر «عمة» و «خالة» على أن كم خبرية، وبنصبهما، فقيل: إن تمياً تجيز نصب مميز الخبرية مفرداً، وقيل: على الاستفهام التهكمي، وعليهما فهي مبتدأ، و «قد حلبت» خبر، والتاء للجماعة لأنهما عمات وخالات، وبرفعهما على الابتداء، و «حلبت» خبر للعمة أو الخالة، وخبرالأخرى محذوف، وإلا لقيل «قد حلبتا» والتاء في «حلبت» للوحدة لأنهما عمة واحدة وخالة واحدة، و «كم» نصب على المصدرية أو الظرفية، أي كم حلبة أو وقتاً.

وأما «كأي» فبمنزلة «كم» الخبرية: في إفادة التكثير، وفي لزوم التصدير، وفي انجرار التمييز، الا أن جره بمن ظاهرة لا بالاضافة، قال الله تعالى: **﴿وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها﴾**، **وقد ينصب كقوله:**

اطرد اليأس بالرجا فكأي ألما حم يسره بعد عسره

وأما «كذا» فيكنى بها عن العدد القليل والكثير، ويجب في تمييزها النصب، وليس لها الصدر: فلذلك تقول: «قبضت كذا وكذا درهماً».

مهمة الشرح

مهمة الشرح تعليمية، إذْ تيسر لطالب العلم فهْم المتن الذي حفظه واستظهره، وأستطيع أن أحدد هذه المهمة بما يأتي:

١ـ توضيح عبارة المتن لغة وإعراباً وتفصيلاً لمجمل، وتصحيحاً

أو تضعيفاً لقول، وضرباً للأمثلة الكثيرة.

٢ـ الزيادة في المعلومات ببيان القيود والشروط في المسألة المشروحة وإيراد أقوال العلماء المختلفة فيها.

٣ـ نصرة ما التزم شرحه بقدر الاستطاعة، والدفاع عما تكفل إيضاحه اللهم إلا إذا عثر على شيء لا يمكن حمله على وجه صحيح، فحينئذ ينبه عليه، وهذا نادر، إذ قلما نجد في الشروح رداً أو انتقاداً لما في المتون.

هذا وقد كان بعض العلماء يكتبون متناً، ثم يتولون بأنفسهم شرحه كما صنع ابن هشام في «**قطر الندى**» و «**شذور الذهب**».

وكما صنع ابن حجة الحموي في «**بديعيته**»، وابن حجر في «**نخبة الفكر**» والعراقي في «**ألفية الحديث**»[٤٢].

وقد يقع أن يكون شرح المتن لغير المؤلف أجود من شرح المؤلف وأكثر فائدة كما نرى في شرح السخاوي لألفية الحديث للزين العراقي المسمى «**فتح المغيث**»[٤٣].

---

(٤٢) وهذه الكتب كلها مطبوعة.

(٤٣) طبع هذا الكتاب من أمد بعيد في الهند، ثم طبع في القاهرة طبعة محرفة سقيمة كثيرة الأغلاط والسقط نشر المكتبة السلفية في المدينة المنورة ويحتاج هذا الكتاب النفيس الى تحقيق وضبط.

٣ ـ الحاشية:

حاشية كل شيء: طرفه وجانبه. وحاشية الكتاب: طرفه. وحاشية الثوب جانباه[٤٤].

ويظهر أن طلبة العلم والعلماء منذ عرفوا الكتاب كانوا يسجلون ما يعن لهم من أفكار وملحوظات واستدراكات على طرف الكتاب وحاشيته، ثم سمي المكتوب على حاشية الكتاب (**حاشية**) على سبيل المجاز المرسل، من تسمية الشيء باسم محله، وهذه العلاقة تعرف في علم البيان بالعلاقة المحلية التي هي واحدة من علاقات المجاز المرسل.

أما ظهور الحاشية على أنها قالب من قوالب التأليف وإطار من أطره فقد كان متأخراً. والحاشية ـ بهذا المعنى ـ هي المقصودة في هذا البحث.

وقد اشتق المتأخرون من (**الحاشية**) بمعناها الاصطلاحي فعلاً هو: حَشَّى يُحَشِّي تحشية فهو محشٍّ، وهذا الاستعمال عامّي كما قال الزبيدي في «تاج العروس» قال: (حشى الرجل تحشية: كتب على حاشية الكتاب عامية).

والسبب الداعي إلى ظهورها أن بعض العلماء رأى ضرورة التوسع في موضوعات عرض لها الشارح ولم يوفها حقها.. فكان

---

(٤٤) انظر معجمات اللغة كالقاموس ولسان العرب وانظر «شفاء الغليل» ص ٦٩.

ذلك دافعاً الى أن يكتب فيها بانياً كلامه على ما ورد في الشرح. . ويبدو أن العلماء استحسنوا هذه الطريقة فقلدوها فعمت وشاعت.

خصائصها:

أستطيع أن أذكر لهذا الإطار من أطر التأليف الخصائص الآتية:

١ـ لمؤلف الحاشية أن يستطرد ما أراد الاستطراد لأقل صلة. ومن هنا كنت تجد في الحاشية تعرّضاً لموضوعات لا يخطر على البال أنها فيها، وربما وقع المرء على فوائد علمية نادرة يعز الوقوف عليها في غير هذا الموضع.

٢ـ ليس كاتب الحاشية ملزماً أن يشرح الأصل كلمة كلمة وجملة جملة كما هو الشأن الغالب في الشرح.

٣ـ وأهم خصائص الحاشية أننا لا نرى فيها دمجاً بين كلام الشرح والحاشية بل يختار المؤلف بعض العبارات ويوردها بقوله: (قوله كذا. .) ويضعها بين هلالين، ولا يتم العبارة.

أنواعها:

والحاشية على نوعين:

١ـ **حاشية على شرح**: وهذا أكثر ما تكون عليه الحواشي.

كحاشية البساطي (المتوفى ٨٤٢ هـ) على الإفصاح المطول.

وكحاشية السجاعي (المتوفى ١١٩٧ هـ) على شرح القطر.

وكحاشية الصبان (المتوفى ١٢٠٦ هـ) على شرح الأشموني.

٢ـ حاشية على متن: وهذا النوع أقل من النوع الأول.

كحاشية الباجوري (المتوفى ١٢٧٦هـ) على السمرقندية.

وكحاشيةمحمد الأمير (المتوفى ١٣٣٢ هـ) على مغني اللبيب.

وسنرى مثالاً على كل من النوعين:

مهمتها:

والمهمة التي تؤديها الحاشية هي:

ـ تأييد ما يذهب إليه الشارح

ـ أو الاستشهاد له.

ـ أو إكمال ما أورد من شاهد، ، وتوجيهه.

ـ أو نقد الشارح والاستدراك عليه.

ـ أو توسيع الموضوع وتفصيله.

ـ أو الاتيان ببعض الفوائد التي تهم الطالب المتصلة من بعيد بما يذكره الشارح.

ـ أو إيراد نُقُول عن الكتب الأخرى في هذا الموضوع لتكملته.

وغالباً تجتمع هذه الأمور في الحاشية أو معظمها أو بعضها.

وإليك بعض الأمثلة:

١ـ مثال على حاشية على شرح:

جاء في شرح القطر ما يأتي:

(وإنما تكون «ذا» موصولة بشرط أن يتقدمها «ما» الاستفهامية نحو «ماذا أنزل ربكم» أو «من» الاستفهامية نحو قوله:

وقصيدة تأتي الملوك غريبة قد قلتها ليقال من ذا قالها

أي ما الذي أنزل ربكم، ومن الذي قالها. فإن لم يدخل عليها شيء من ذلك فهي اسم إشارة ولا يجوز أن تكون موصولة خلافاً للكوفيين واستدلوا بقوله:

عَدَس ما لِعبَّادٍ عليك إمارةً
أمنت وهذا تحملين طليق

قالوا (هذا) موصول مبتدأ؛ و (تحملين) صلته، والعائد محذوف، و (طليق) خبره، والتقدير: والذي تحملينه طليق. وهذا لا دليل فيه..).

قال السجاعي في حاشيته ما يأتي:

«قوله بشرط أن يتقدمها الخ» ويشترط أيضاً عدم إلغاء (ذا)، والمراد بإلغائها أن تجعل مع (ما) أو (من) اسماً واحداً مستفهماً به. ويظهر أثر الأمرين في البدل من اسم الاستفهام، وفي الجواب فتقول عند جعلك (ذا) موصولاً: ماذا صنعت أخير أم شر. بالرفع على البدلية من (ما) لأنه مبتدأ و (ذا) خبره، أو بالعكس، وجملة (صنعت) صلته. وتقول عند جعلها اسماً واحداً: ماذا صنعت

أخيراً أم شراً. ومن ذا أكرمت أزيداً أم عمرا، بالنصب على البدلية من (ماذا) أو (من ذا) لأنه منصوب بالمفعولية مقدماً.

وكذلك تفعل في الجواب كما في قوله تعالى: ﴿**ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو**﴾ قرىء في السبع برفع العفو ونصبه. تأمل.

«قوله وقصيدة تأتي. . الخ» من بحر الكامل، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، لأن الشاعر يقصد تحسينها وتهذيبها، ولا تسمى الأبيات قصيدة حتى تكون عشرة، وقيل: حتى تجاوز سبعة، وما دون ذلك يسمى قطعة.

«قوله عدس ما لعباد. . الخ» من الطويل، وعدس بفتح العين والدال وسكون السين المهملات، اسم صوت يزجر به البغل، والإتيان بضمير المؤنث في البيت إما لكون المزجور أنثى.

أو على إرادة الدابة، بناء على أنه مذكر. وإمارة، بكسر الهمزة، أي حكم. «وقوله أمنت. . الخ» يروى بدله: نجوت. وطليق أي مطلق من السجن والشاهد في «هذا» حيث جاءت موصولة على رأي الكوفيين. وعبّاد المذكور ملك سجستان، وكان الشاعر قد هجاه، فلما سجنه وأطال سجنه كلموا فيه معاوية، فبعث إليه؛ فأخرجه، وقدمت إليه بغلته فنفرت، فقال: عدس. . الخ اهـ ش[٤٥] ملخصاً[٤٦].

(٤٥) لعلة يريد بالرمز ش شرح الشنواني الكبير على الأجرومية ـ أنظر حاشية السجاعي ص ٣.

(٤٦) حاشية السجاعي ص ٥٦.

٢ـ مثال على حاشية على متن:

جاء في السمرقندية ما يأتي:

«ذهب السكاكي إلى أنه إن كان المستعار له محققاً حساً أو عقلاً فالاستعارة تحقيقية وإلا فتخييلية».

قال البيجوري في حاشيته على السمرقندية ما يلي:

«قوله محققاً حساً أو عقلاً المراد بالمحقق حساً ما له تحقق في الخارج بحيث يحس بحاسة البصر، وذلك كما في قولك: رأيت أسداً في الحمّام، فإن المستعار له، وهو الرجل الشجاع محقق حسّاً بالمعنى المذكور. والمراد بالمحقق عقلاً ما يحكم العقل بأنه ذو تحقق، لكونه ثابتاً في نفسه كالأمور الاعتبارية الصادقة، وذلك كما في قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فإن المستعار له وهو الدين الحق محقق عقلاً بالمعنى المذكور، وعلم من ذلك أنه ليس المراد بالتحقق عقلاً مجرد كون المستعار له موجوداً في الذهن، فإن هذا القدر موجود في التخييلية، ولا يخفى أنه يلزم من كون المستعار له محققاً حساً كونه محققاً عقلاً وحينئذ فقوله حساً أي وعقلاً، وقوله أو عقلاً أي فقط.

«قوله فالاستعارة تحقيقية» سميت بذلك لأن المستعار له محقق إما في الحس أو العقل.

«قوله وإلاَّ» أي وإن لم يكن المستعار له محققاً حساً أو عقلا بأن كان متخيلاً، وذلك كما في قولك: «أنشبت المنية أظفارها بفلان»

فإن المستعار له متخيل لأنه بعد تشبيه المنية بالسبع تتخيل القوة المفكرة للمنية صورة شبيهة بالأظفار فشبهت الصورة المتخيلة بالصورة المحققة، واستعير لفظ الأظفار من الصورة المحققة للصورة المتخيلة على طريق الاستعارة التخييلية، والتعبير بالقوة المفكرة أولى من تعبيرهم بالوهم، لأن الذي من شأنه التحليل والتركيب إنما هو القوة المفكرة، ويقال لها القوة المتصرفة، لكن لما كان تصرفها المذكور بواسطة الوهم نسبوه إليه، وذلك أن الحكماء زعموا أن في الرأس ثلاثة تجاويف:

- تجويف في مقدمه، وفيه قوتان «الأولى الحس المشترك، وهو قوة تدرك صور المحسوسات بأسرها والثانية الخيال وهو قوة تحفظ تلك الصور فهي خزانة للحس المشترك.

- وتجويف في مؤخره، وفيه قوتان: الأولى الواهمة، وهي قوة تدرك المعاني الجزئية كصداقة زيد وعداوة عمرو، والثانية الحافظة وهي قوة تحفظ تلك المعاني، فهي خزانة للواهمة.

- وتجويف في وسطه، مستطيل بين التجويفتين، نافذ لكل منهما، ومثلوه بالدودة وفيه قوة واحدة وهي المفكرة.

هذا ما اشتهر في النقل عنهم، وفي كلام بعضهم أن الواهمة مع المفكرة في التجويف الذي في وسطه، والحافظة في أول التجويف الذي في مؤخره.

واقتضت الحكمة الآلهية فراغ آخر للنزول والصدم، كما قاله

بعض شراح الهداية. وجميع هذه القوى غير القوة العاقلة التي في القلب ولها شعاع متصل بالدماغ وقد جمعت في قول بعضهم:

أمنــع شريكك عن خيالك وانصرف
عــن وهمــه واحفــظ لذلك واعقلا

وما عدا القوة العاقلة من هذه القوى لم يقم عند أهل السنة دليل على ثبوتها ولا على انتفائها فهم لا يقولون بثبوتها ولا بانتفائها.

«قوله فتخييلية» سميت بذلك لأن المستعار له متخيل»[٤٧].

د ـ التقرير:

ولا يكون غالباً إلا على الحاشية، وقليلاً ما يكون على المتن أو الشرح. والتقرير كلمات يقولها الأستاذ ساعة إلقائه الدرس، وقد يرتجلها وربما اعدها مكتوبة قبل الدرس.

وأكثر المعلومات في التقرير تكون إكمالاً لما ورد في الحاشية وزيادة عليها أو نقداً لما جاء فيها فهو إذاً تتميم للحاشية وإكمال لها وتعد الأمور التي سكت عنها صاحب التقرير محل موافقة منه عليها.

ومن أشهر أصحاب التقريرات الشيخ محمد الأنبابي المتوفى سنة

---

(٤٧) حاشية الإمام البيجوري على متن السمرقندية في البيان ص٢٢ طبع بولاق سنة ١٣٠٢.

١٣١٢ هـ، وسنضرب مثلاً على هذا الإطار من تقرير الأجهوري على حاشية الباجوري على السمرقندية في البلاغة:

المثال:

قال العلامة الشيخ أحمد الأجهوري «المتوفى ١٢٩٣ هـ» في تقريره على الموضع السابق الذي أوردناه آنفاً قال:

«قوله ومثلوه بالدودة» أي مثلوا التجويف المتوسط في الرأس بالتجويف المتوسط في الدودة، بمعنى أنه مثله في الاستطالة، فلها ثلاثة تجاويف، تجويف عند رأسها، وتجويف عند ذيلها، وتجويف في وسطها وهو أطول من التجويفين الآخرين، وقد أخبرنا بعض الناس أنه رآها كذلك»[٤٨].

ملحوظات هامة:

١ـ كان التسلسل الزمني لظهور هذه الأطر من الكتب وفقاً للترتيب الذي أوردناها عليه. فأقدمها المتن، وأحدثها التقرير الذي يعد إطاراً حديث الظهور بالنسبة إلى الأطر السابقة.

٢ـ إن معظم المؤلفين في العصور المتأخرة قد ضعفت حاسة النقد عندهم، وكأني بهم قد أسقطوا من حسابهم موضوع المناقشة، ولذلك فأنت تراهم يوردون الخرافات والأساطير دون أن يعلقوا عليها بشيء، ويوردون الافتراضات الخيالية؛ من ذلك ما

---

(٤٨) حاشية البيجورية على السمرقندية ٢٢.

جاء في «الحواشي المدنية» ١/ ١١٢ للكردي المتوفى ١١٩٤ تعليقاً على قول الشارح «وما تولد من أحدهما» مع حيوان طاهر ولو آدميا تغليباً للنجس»: (قال في «التحفة»: بخلاف التكاليف، لأن مناطها العقل، ولا ينافيه نجاسة عينه للعفو عنها، فيدخل المسجد ويماس الناس ولو مع الرطوبة ويؤمهم، لأنه لا تلزمه الإعادة. ا هـ. ملخصاً وأفتى م. ر[٤٩] بطهارته حيث كان على صورة الآدمي كما ذكره سم[٥٠] في حواشي المنهج، فإن كان على صورة الكلب قال سم في «حواشي التحفة»: ينبغي نجاسته وألاّ يكلف وإن تكلم وميّز وبلغ مدة بلوغ الآدمي إذ هو بصورة الكلب، والأصل عدم آدميته.. وذكر عن بعضهم أن الآدمي بين شاتين يصح منه أن يخطب ويؤم الناس ويجوز ذبحه وأكله أ. هـ. قياسه أن الآدمي من حيوان البحر كذلك، وفي كلام بعضهم أن المتولد بين سمك وآدمي له حكم الآدمي أهـ. مقتضاه حرمة أكله..».

٣ـ إن الشخصية العلمية النامية في المؤلفين قل ظهورها في المؤلفات المتأخرة وذلك أننا نجد فيها أقوالاً عدة حفظها المؤلف وأوردها دون أن يبدي رأيه في الأقوى منها، إلا أن يكون للمتقدمين فيها قول صريح فيأتي به عندئذ ناقلاً.

---

(٤٩) م ر في كتب الشافعية رمز للعلامة محمد الرملي انظر «كتاب الإملاء» ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ لحسين الوالي ط المنار سنة ١٣٢٢هـ.

(٥٠) سم في كتب الشافعية رمز للعلامة ابن قاسم العبادي أنظر «كتاب الإملاء» ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ لحسين الوالي ط المنار سنة ١٣٢٢ هـ.

٤ـ إن دوران هذه الأطر التـأليفية على حل الألفـاظ وشرحهـا جعل اهتمام طلبة العلم والمؤلفين بالناحية اللفظية كبيراً جداً؛ فقد كان لأصحاب الحواشي والتقريرات جولات مطولة في دلالة الجملة والكلمة، ومناقشات مسهبة لنواحي لفظية. وكان اهتمامهم يطغى على ما سواه كتسهيل العلوم وضبط مسائلها وتقريب قصيها وجمع شاردها.

وهذا الغرم لا يتناسب والغنم الذي تؤديه من الدقة والوقـوف على الدلالة بشكل جيد.

ولا يبالغ من يقول: إن الوسيلة انقلبت عند أصحاب الشروح والحواشي والتقريرات إلى غاية، فاللفظ وفهمه وسيلة لفهم مسائل العلم، وليس غاية في ذاته، بينما نجد أن ذلك غاية عند القوم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
مناهج التأليف	١٠
أنواع المؤلفات	٢٢
الأطر التأليفية	٢٤
نماذج من المتون	٣١
١ ـ متون قديمة	٣١
٢ ـ الشرح	٣٦
أنواع الشروح وأساليبها	٣٨
مهمة الشرح	٥٠
٣ ـ الحاشية	٥٢
خصائصها	٥٣
أنواعها	٥٣
مهمتها	٥٤
ملحوظات هامة	٦٠
الفهرس	٦٣